# الاغتراب ومحنة الذات في شعر محمود سامي البارودي
# (مقاربة دلالية)

# ALIENATION AND SELF-DISTRESS IN THE POETRY OF MAHMOUD SAMI AL-BAROUDI (SEMANTIC APPROACH)

**أمينة صامت بوحايك***
sametbouhaikamina@gmail.com
مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)
**الدكتور أحمد عراب**
arabahm2@gmail.com
مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر)

تاريخ الإرسال 2019/10/16 تاريخ القبول 2020/05/07 تاريخ النشر 2020/12/01

**ملخص:**

تشكل ظاهرة الاغتراب في اللغة الشعرية ملمحًا فنيًا في بنية الخطاب الشعري الحديث، وأفقًا جماليًا لنمذجة شعرية عربية، لما يحمله هذا النوع من الشعر الاغترابي من تعبيرية وأسلوبية تتجلى بشكل بارز في طريقة رسم الشاعر لأحوال الذات والأسلوب الذي وظفه كنتاج للألم والفراق، الذي سطر على حياة العديد منهم تبعًا للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي مست العديد من الأقطار العربية نتيجة الاستعمار، فاشتغل الشاعر العربي لمكافحة هذه التطورات من خلال مضامينه الشعرية، فكان عقابهم إما السجن أو النفي بعيدًا عن الوطن، والبارودي إلى جانب كوكبة من الشعراء رائد في هذا المجال فقد عانى الغربة سبع عشر سنة في سرنديب وتبلور هذا الاغتراب بشكل بارز في أشعاره خلال منفاه.

ومنه تسعى هذه الورقة البحثية إلى مناقشة ظاهرة الاغتراب خلال منفى البارودي، وأهم المؤشرات الفنية له في نصوصه الشعرية انطلاقا من رؤيته الذاتية، والتنظير لهذا المصطلح (الاغتراب) في المجال النقدي، وبالخصوص في الفكر النقدي الغربي الذي قطع أشواطًا مهمة في التمثيل لهذا المكون.

ومن هذا الأساس تنبثق الإشكالات التالية: ما مفهوم الاغتراب؟ وإلى أي مدى استطاع البارودي أن يرسم ملامح الأنا المنشأة للنص اعتمادًا على تجليات الاغتراب؟.

**الكلمات المفتاحية**: الاغتراب؛ محمود سامي البارودي؛ الشعر العربي الحديث؛ الشعرية العربية.

**ABSTRACT :**

The phenomenon of alienation in poetic language constitutes an artistic allusion in the structure of modern poetic discourse, and an aesthetic horizon for the modeling of Arabic

* المؤلف المرسل

poetry, because of the expression and style of this type of poetry, which is prominently manifested in the way the poet paints the condition of the self and the method he employed as a product of the pain and separation that A line on the lives of many of them according to the political, social and cultural circumstances that affected many Arab countries as a result of colonialism, the Arab poet worked to combat these developments through his poetic contents, Their punishment was either imprisonment or exile away from home, Al-Baroudi, along with a constellation of leading poets in this field, suffered seventeen years of alienation in Serndebe, and this alienation was prominently crystallized in his poems during his exile.

From there, this paper seeks to discuss the phenomenon of alienation during the exile of Al-Baroudi, and the most important technical indicators of it in his poetic texts based on his own vision, and the theory of this term (alienation) in the monetary field, and especially in the Western critical thought, which has made important strides in the representation of this Component.

From this basis, the following problems arise: what is the concept of alienation? To what extent was Al-Baroudi able to draw the contours of the ego created for the text based on the manifestations of alienation?

**Keywords:** Expatriation; Mahmoud Sami Al-Baroudi; Modern Arabic Poetry; Arabic Poetry.

## 1. مقدمة:

شاع مصطلح "**الاغتراب**" في أدبيات الفكر القديم و الحديث بطريقة جعلته يُستخدم أحيانًا بطريقة لا تخلو من الابتذال، وقد يعود هذا التشابك في الطرح إلى أن البعض يستخدمه وكأنه أمر مألوف ومفهوم لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "الاستخدام الشعبي" للمصطلح، والاغتراب هو مصطلح بالغ الصعوبة، برغم السهولة البادية في استخدامه وربما ترجع هذه الصعوبة إلى تباين الاستخدامات التي يشير إليها المصطلح ومشتقاته في اللغات القديمة، وكذلك إلى اختلاف المناسبات التي يستخدم فيها في المجالات المعاصرة، فقد حفلت المعاجم اللغوية الغربية بمتابعة دؤوب لدلالة الاغتراب وتعرضت لتجلياته في مجالات الأدب والعلم والفلسفة حتى بدت هذه التعريفات من التعدد والتناقض إلى الحد الذي زاد الاغتراب غموضًا[1]، أما المعاجم العربية فقد اكتفت بترديد تلك المعاني المنقولة عن السلف، وفي هذا المقال سوف يكون هدفنا الكشف عن الجذر اللغوي لكلمة "اغتراب" في اللغات المختلفة، ورصد تموّر مصطلح الاغتراب والمناسبات التي استخدم فيها المصطلح قديمًا وحديثًا، وتجليات هذا الأخير في أقوال محمود سامي البارودي الشعرية وانعكاسه على ذاته.

### 1– مفهوم الاغتراب:

#### أ– لغة:

#### – في المعاجم العربية:

ورد مصطلح الاغتراب في المعاجم العربية بمعنى الغربة المكانية أو البعد عن الوطن، فقد جاء مثلًا في لسان العرب"لابن منظور" في مادة "غَرَبَ" على الشاكلة التالية: "هو البعد ومن قيل: دار فلانٍ غَرْبَةٌ، والخبر المغْرِبُ: الذي جاء غريبًا حادثًا طريفًا، والتغريبُ عن البلد، وغَرَبَ أي بَعُدَ، ويقال: اغْرُبْ عني أي تباعَدْ، ومنه الحديث:

أنه أمر بتغريب الزاني، والتغريبُ: النفيُ عن البلد الذي وقعت الجناية فيه، يقال: أَغْرَبْتُهُ وغَرَّبْتُهُ إذا نَحَّيْته وأبعَدْتَه، والتَّغرُّبُ: البُعْدُ والغُرْبَةُ والغُربُ: النزوح عن الوطن والاغتراب...

والاغتراب والتغرُّب كذلك، تقول منه: تَغَرَّبَ، واغتربَ وقد غربه الدهر، ورجل غُرُب بضم الغين والراء، وغريبٌ: بعيد عن وطنه"[2].

ووظفت المعاني نفسها في كل من " المصباح المنير" في مادة "غَرَبَ" يقول:" وغَرُبَ الشَّخْصُ بالضَّمِّ غرابةً: بعُدَ عن وطنِهِ، فهو غريبٌ فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، وجمعه غرباءُ، وغَرَّبْتُه أنا تغريبًا فتغرَّب واغتربَ"[3].

وفي معجم "مختار الصحاح" في مادة غَرب يقول: "تَغَرّبَ واغْتَرَبَ بمعنى فهو غريبٌ وغُرُبٌ بضمتين والجمع الغرباء، والغرباء أيضًا الأباعدُ، واغترب فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه...والتغريب النفي عن البَلَد، وأَغْرَبَ جاء بشيء غريب، وأغرب أيضًا صار غريبًا"[4].

ومن ذلك فكلمة "غربة" في المعاجم العربية تدل على معنيين هما:

**الأول**: يدل على الغربة بمفهومها المكاني.

**الثاني**: يدل على الغربة بمعناها الاجتماعي والتي تعني الانفصال عن إنسان آخر أو مجموعة من البشر.

**– في اللغات الأجنبية:**

المرادف الأجنبي للكلمة العربية "**اغتراب**" "في اللغة الإنجليزية هو "Alienation"، وفي اللغة الفرنسية "Aliénation"وفي الألمانية "Entfremdung" وقد استمدت كل من الكلمة الانجليزية والفرنسية أصلها من الكلمة اللاتينية "Alienato"، وهي اسم مشتق من الفعل اللاتيني" Alienare" والذي يعني نقل ملكية شيء ما إلى آخر، أو يعني الانتزاع أو الإزالة"[5].

وعلى نحو مماثل استخدمت الكلمة اللاتينية" **اغتراب**" بطرق متنوعة في التاريخ القديم، للتعبير عن الإحساس الذاتي بالغربة أو الانسلاخ "Detachment" سواء عن الذات أو الآخرين، وكذلك في مجال القانون لتفيد نقل ملكية شخص ما إلى شخص آخر، مثلًا كقيام شخص ما بتغريب شيء ما يملكه كالأراضي والمنازل[6].

وقد استمر تداول المصطلح في العصر الحديث على هذا المنوال السالف الذكر، فقد وظف الفيلسوف الهولندي "**هوجو جرويتوس**" Grotius (**1583م– 1645م**)" الفعل اللاتيني "Alienare "فيما يتعلق بنقل ملكية السلع، لكن هذا الاستخدام يمتد لدى **جرويتوس** ليشمل أيضًا نقل السلطة السيادية أو السياسية من شخص أو مجموعة أشخاص إلى شخص آخر، وقد وجدت هذه الفكرة صدى لدى أصحاب نظرية "**العقد الاجتماعي**" الإنجليز والفرنسيين فاستخدموا اصطلاح "**الاغتراب**" للدلالة على المعنى الأخير، يعني نقل الملكية السياسية[7].

ومن جانب آخر تم استعمال المصطلح في إنجليزية العصور الوسطى (**في القرن الخامس عشر**) للتعبير عن حالات الخبل أو الجنون، فالشخص المغترب وفقًا لهذا المعنى هو من اغترب عن عقله.

ومنه فمصطلح "**اغتراب**" في اللغات الأجنبية يحيل إلى معنى جوهري واحد كما يبينه **ريتشارد شاخت** وهو أنه ما "يغدو غريبًا أو يجعل شيئًا ملكًا لآخر، والاغتراب هو حالة كون المرء مغتربًا، أو مفارقًا لشيء أو لشخص"[8].

**ب- اصطلاحًا:**

**1- الاغتراب في الفكر الغربي:**

**1-1- الاغتراب في الفكر الفلسفي اليوناني:**

تتبدى ملامح الاغتراب الأولى في بداياتها التكوينية إلى جمع من كتابات فلاسفة اليونان، ونستطيع تلمس جذور هذا المفهوم وبوضوح في الملاحظات التي سجلوها قديمًا، وبما أن مصطلح الاغتراب يدل في معناه العام "على حالة في الخلق تتصف بكونها معرفة وجدانية في الآن نفسه وهو ينطوي على التفات إلى الوجود وعلى الشعور بالنفور منه مصحوبًا بالإحساس بأن هذا أمر يجب أن لا يكون"[9]، وهذه الحالة الوجدانية المعرفية تتجلى بطبيعة الحال عند الفلاسفة والمفكرين حيال الوجود وما يحيط بهم من ظروف اجتماعية وسياسية تعكر صفو حياتهم، لذلك نجد أن للاغتراب كان له نصيب كبير من كتابات الفلاسفة اليونانيين منذ القدم على الرغم من حداثة هذا المصطلح، فالدلالات الأولية له يمكن العثور عليها في أعمال كل من (**أفلاطون وسقراط**).

سقراط (**399م-469 م**)، الذي كان يعيش حالة من الاغتراب عن من حوله وعن الطبيعة التي يعيش فيها، ويعود ذلك كله إلى ما كان يعيشه من مرحلة طفولته إلى بلوغ الفكر لديه، فقد كان ذا ملمح بشع، ما جعله يشعر بالغربة بين أقرانه في طفولته فعاش مرارة الغربة وكابد صراعًا دينيًا داخليًا، وبقي على ذات الحال وهو كبير، إضافة إلى ذلك اغترابه عن الطبيعة من خلال رفض البديهيات التي كانت موجودة فيها وإبدالها بعامل الشك في كل الموجودات، وذلك طبعًا من أجل تغيير بديهيات الواقع، "وهو بذلك قد عبر عن الجانب الإيجابي للاغتراب، حيث وعيه بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة به والمحيطة له بصورة تتجسد في الشعور بعدم الانتماء والسخط والتمرد على الواقع بهدف التغيير"[10].

رغم ذلك كانت روحه تستلهم قوتها من الإيمان "بأنه مستلهم في أعماله بصوت يسميه الشيطان، وهذا الصوت أعطاه القدرة على التمييز بين النتائج الطيبة من الشريرة لأعماله المفترضة وما من شيء يستطيع أن يحول بينه وبين إطاعة أوامره، ولقد كان سقراط شخصية مغتربة حقًا وتقدم الصلة الهجينة النادرة لقلب متأجج وعقل رزين، وكان ذا حساسية مرهفة ومفكر متعصب لفكرة فدفع حياته ثمنًا لها"[11]، فتبنى فكرة (**حرية الأفكار**) ودافع عن آراءه بعدم الرضوخ لمن حوله وممن احتقرهم من الجماهير التي ناشدته بذلك من أجل تقديم الرحمة له، لكنه أبى ذلك وسار في طريقه إلى النهاية جاعلًا نهاية لحياته من خلال تجرع السم في سبيل قهر اغترابه .

أما **أفلاطون** (**427م–347 م**) الذي كانت غايته في جمهوريته هو تحديد الدولة المثالية التي تتحقق فيها العدالة، وبذلك كان "فكره بذاته أول اغتراب واع، عندما قسم العالم إلى مطلق ووجود، والمطلق هو عالم المثل، والوجود هو عالم الظلام والصور المشوشة، ثم كانت جمهوريته تجسيدًا لهذه الفكرة الاغترابية"[12]، وعالم المثل أو تحقيق العدالة بين الأفراد في حد ذاتها حسب رأيه هي الخير الوحيد للنفس الإنسانية و بها يدرك الإنسان السعادة ويحقق ذاته في أرضه، وهي الصورة التي كان يريد لمجتمعه أن يكون عليها، فهو كان إنسانا مغتربا عن سياسية وأخلاقيات مجتمعه، وهو إنسان لا يخضع للسلطة ومؤثراتها العاملية، وتكمن في ذهنه فكرة تتمحور في أنه لا يمكنه المساهمة في الحياة العامة لمدينته دون القيام بسلسلة من الإصلاحات في النظام العام للدولة، وبهذا يشير الاغتراب عند أفلاطون إلى حالة التجاوز لما هو واقع في الأساس وفق سلطة الدولة الحاكمة أو الطبقة الكادحة مما يحقق حياة مثالية للفرد تؤكد على الخير والحق.

وبذلك يتمثل أصل الاغتراب عند أفلاطون في "جهل الإنسان تحقيقه لوجوده الذاتي، فالإنسان (**أفلاطون**) مغترب عن ذاته المتفهم بين عالم الواقع وعالم المثل، وأن تنازل الفرد عن بعض رغباته يؤدي إلى تحقيق أفضل لذاته، إذ أنه يتنازل عن تفرده ليحقق اجتماعيته، فأساس المشاركة والانتماء هو وحده المصلحة والعدالة الاجتماعية، ثم يكون التفاوت في الثروات والتمايز الطبقي على أساس الملكية هو علة الاغتراب واللا انتماء"[13].

### 1–2– الاغتراب من منظور نظرية العقد الفريد:

أصل "**قضية الاغتراب**" يرجحها العديد من المفكرين إلى (**نظرية العقد الاجتماعي**) لـ "**جون جاك روسو** John Jacques Rousseau" (**1712م–1778م**) وذلك خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، انتزعت كلمة الاغتراب من لغة تجاوزات الذات المغتربة اجتماعيا إلى منحى ذا بعد سياسي، ووجدت صداها وفق العقد الاجتماعي الذي يعتبر الاغتراب أساسه والذي لولاه لما انعقد العقد، وقد عرف روسو الاغتراب في كتابه (**العقد الاجتماعي**) بـ: "أن تغترب يعني أن تعطي أو أن تبيع، فالإنسان الذي يصبح عبدًا لآخر لا يعطي ذاته وإنما يبيع ذاته على الأقل من أجل بقاء حياته، أما الشعب فمن أجل ماذا يبيع ذاته"[14]، وبذلك فإنه يرجح كلمة الاغتراب إلى المعنى السياسي، ويحددها على أنها البيع والتسليم، وهذا يعني أن الفرد إذا قام بتسليم ذاته وتخلى للآخرين عن حقوقه ودوره في ممارسة سيادته الخاصة به، بهدف قيام المجتمع والوطن فهو عند روسو يمثل الاغتراب الايجابي، أما إذا نظر الإنسان إلى ذاته كما لو أنه مجرد سلعة للبيع لا أكثر في سوق الحياة فهذا يعد اغترابا سلبيا، وهذا النوع من الاغتراب يتعلق بكتابات روسو في "سياق نقده للحضارة والمجتمع الغربيين، فهو يرى أن الحضارة الغربية سلبت الإنسان ذاته، وجعلته عبدًا للمؤسسات الاجتماعية والنماذج السلوكية التي أنشأتها"[15].

ويقصد بذلك أن الحضارة والمدنية التي صنعها الإنسان هي التي تتسبب في إفساد الإنسان وفصله عن الطبيعة، فتنتشر كل أنواع الرذائل التي هي غريبة عن طبيعته فتؤدي إلى تغيير كينونته الفطرية إلى نمط جديد، مما

يسلب منه مختلف القيم الحسنة، وتسيطر عليه المؤسسات التي أنشأها من جراء هذا التغيير الجوهري في نمط حياته إلى أن يصبح عبدًا لها، وتظهر الفروقات الطبقية في ظل هذه المؤسسات، مما ينتج عنها طغي الغني على حقوق الفقير، وسيطرة الحياة المدنية على الأحياء الفقيرة، وتفشي الاستغلال والنفاق بين أفراد المجتمع من مختلف الطبقات، ويصبح كل شيء يقاس بمقاييس السوق وقواعده حتى في نطاق العلاقات الشخصية والاجتماعية.

ومنه جون جاك روسو ينظر إلى الاغتراب من وجهتين الأولى سياسية وهي التي تحمل الجانب الإيجابي منه، أما الشق الثاني منه فهو الذي يمثل وجهه السلبي الذي يمثل معنى الانشقاق عن المجتمع بسبب ظاهرة التمدين، وربما يعود هذا الطرح للاغتراب في شقيه الاثنين لدى جون جاك روسو، إلى طبيعة حياته التي عاشها غريبًا بين مجتمعه من خلال عدم التسليم بمتطلباته الفكرية والاجتماعية والسياسية، مما ولد لديه النظرة السلبية حول كل من يحيط به.

### 1-3- الاغتراب عند الفلاسفة المحدثين:

وإذا ما تجاوزنا هذه المعالجات السالفة الذكر للاغتراب نجدها تأخذ مسارها المنهجي الموضوعي مع "**هيجل** Hegel" (**1770م-1831م**) ، الذي يعد من بين الفلاسفة المحدثين الذين استخدموا كلمة (**اغتراب**) بطريقة منهجية ذات مغزى علماني من ناحية ارتباطه بواقع الحياة المعاشة، خاصة في كتابه "ظاهريات العقل الكلي" وفي هذا الكتاب يحاول هيجل أن يتتبع مسار الوعي الإنساني وتطوره في مختلف أشكاله وصوره، وهو لا يهتم في هذا التطور بالمراحل الزمنية، وبالأحداث التاريخية قدر اهتمامه بالتطور المنطقي الباطني في تاريخ الإنسانية، ذلك أن الاغتراب لدى هيجل واقع وجودي متجذر في وجود الإنسان في هذا العالم[16].

ومن هذا المنطلق عرف **هيجل** الاغتراب "بأنه حالة اللاقدرة أو العجز التي يعانيها الإنسان عندما يفقد سيطرته على مخلوقاته ومنتجاته وممتلكاته، فتُوظف لصالح غيره بدل أن يسطو هو عليها لصالحه الخاص"[17]، فيفقد الفرد القدرة على تقرير مصيره بما في ذلك تلك القرارات التي تهمه وتسهم بتحقيق ذاته وشخصه، وقد حصر هيجل الاغتراب في نوعين لا ثالث لهما الأول يكون بغربة الإنسان عن ذاته والثاني غربته عن المجتمع الذي يحيط به، أي تتعلق بصلة الإنسان بالبنية الاجتماعية التي ينتمي إليها.

وبعد هيجل جاءت معالجة "**فيورباخ** Feuerbach" (**1830م-1847م**) للاغتراب، وذلك بنقده للدين بشكل عام ولفكرة الإله بشكل خاص، فقد تناول قضية الاغتراب من جانبها السلبي معتبرا أن الإنسان يغترب عن نفسه لأنه يعكس من خلال إيمانه الديني أفضل ما لديه وعلى ما في دواخل نفسه وما يحيط بها من تأثيرات خارجية، وفي نظر فيورباخ الذي تتلمذ على هيجل "أن الدين هو نوع من اغتراب الإنسان عن نفسه، أي الاغتراب الذاتي، بذلك يتصرف الإنسان واضعًا نفسه تحت سيطرة مخلوقاته التي قد تتحكم به بدلًا من أن يتحكم بها، فيتحول الخالق أي الإنسان إلى مخلوق، والمخلوق (وهو في هذه الحالة الله أو الكنيسة)

إلى خالق"[18]، بهذا يعكس الإنسان ما في نفسه من صفات وما لديه من قيم ومعارف عن الألوهية فيظهر الإله في صورة الكمال أما الإنسان فيتحول إلى مثال للخطيئة والشر.

ويشرح **فيورباخ** فكرته عن الاغتراب أكثر في كتابه الموسوم بـ "جوهر المسيحية" الذي ألفه عام (**1841م**)، يشير فيه إلى أن الدين هو عبارة عن نتاج يتبادر عن الإنسان لا أكثر، وبالخصوص يصدر من دافع الخوف من مواجهة الأخطار ومواكبة الطبيعة بتغيراتها الفطرية، مما ينتج عند الإنسان وبالذات النوع البدائي منه قوة لمواجهة هذا التجاوز للطبيعة ومحاولة مواكبتها، ثم منح هذه القوة الخرافية صفات الكمال، ومن هنا نشأت فكرة الألوهية بوصفها ماهية الإنسان المغتربة، يقول فيورباخ في ذلك: "إن الدين، أو على الأقل الديانة المسيحية، هو علاقة الإنسان بنفسه...ولكنها علاقة يتم إدراكها كطبيعة مستقلة عن ذاته، والكائن المقدس ليس شيئًا آخر سوى الوجود الإنساني، أو بالأحرى الطبيعة الإنسانية بعد أن تمَّت تنقيتها وتحريرها من محدودية الإنسان الفردي وجعلها موضوعية...ومن ثم فإن كل الصفات التي ننسبها للطبيعة المقدسة هي صفات الكائن الإنساني"[19]، بعبارة أخرى أن الموقف الديني عند **فيورباخ** هو موقف اغتراب، يجعل من الله موضوعًا مستقلًا عن الإنسان، متجسدًا في وثن نفسي، ويبرهن فيورباخ على صدق نظريته في الاغتراب الديني من خلال تحليل بنية العقل الإنساني ذاته، وأن فكر الإنسان وموضوعاته تنتمي إلى الأرض، ولذلك فإن أي فكرة نكونها عن الله ستكون ذات طابع إنساني وأرضي أيضًا.

كان هدف فيورباخ هو قهر الاغتراب الديني من خلال تجاوز المسافة التي تفصل الدنيوي عن المقدس، واكتفى بهذا الطرح الديني للقضايا الإلهية كحل نظري في قهر هذا النوع من الاغتراب، واقتصر بحثه بالكشف عن الوهم المعرفي للأفكار اللاهوتية لتجاوز الوضع الاغترابي للإنسان وتحقيق ذاته الكاملة.

وبعد (**فيورباخ**) يمكن القول أن أكثر المفاهيم للاغتراب تأثيرًا وشيوعًا في الفكر المعاصر هو ما جاء به "**كارل ماركس** Karl Marx"(**1818م–1883م**)، وربما يرجع ذلك إلى وضوح وبساطة المفهوم الذي طرحه، وارتباطه المباشر بالواقع المادي للإنسان أي أنه جعل من الاغتراب الاقتصادي هو الأصل لجميع أنواع الاغتراب الأخرى، ويحدد ماركس الاغتراب فيقول :" إن ناتج العمل هو عمل تجمد في موضوع، أصبح ماديًا: إنه العمل المتموضع، فتحقق العمل هو تموضعه أما في الظروف التي يعالجها الاقتصاد السياسي– ظروف الواقع الرأسمالي– يبدو تحقق العمل فقدانًا للواقع بالنسبة للعمال، ويظهر التموضع على أنه فقدان للموضوع واستعباد بواسطته، كما يبدو التملك كغربة واغتراب"[20].

يؤكد ماركس بطريقة لا تحتمل الشك على هذه التفرقة فيقول: " لا يعني اغتراب العامل في ناتجه أن عمله قد أصبح موضوعًا ووجودًا خارجيًا فقط، لكنه يعني أنه يوجد خارجه مستقلًا عنه كشيء غريب بالنسبة له، أنه يصبح قوة بذاتها تواجهه، إنه يعني أيضًا أن الحياة التي منحها للموضوع تواجهه كشيء معاد وغريب"[21].

ويرتبط اغتراب الناتج العملي عند ماركس باغتراب الفعل الإنساني أو النشاط الإنتاجي ذاته، ويشكل اغتراب العمل عند ماركس حقيقتان هما:

**الأولى**: خارجية العمل بالنسبة للعامل، أي أن الإنسان لا يحقق ذاته في عمله وإنما ينفيها ويحقرها، فبدلًا من أن يكون العمل هو مصدر السعادة، وأساس تطوير الطاقات الجسمانية والعقلية يصبح مصدرًا لشقاء الإنسان ولتدمير جسده وإفساد عقله.

**الثانية**: أن هذا العمل ليس له وإنما لشخص آخر هو صاحب رأس المال[22].

تتوضح أطروحة كارل ماركس من خلال استخدام مفهوم الاغتراب في نظريته الاقتصادية بعد دراسة المعنى الأصلي الذي وضعه (**هيجل**) سابقًا في فلسفته المثالية، فظروف العمل القاسية التي تفرضها المجتمعات الرأسمالية ينتج عنها اغتراب العامل، وذلك من خلال حرمانه من الإمكانيات والفرص الكافية في سبيل تحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية التي يسعى لتحقيقها، والعامل بذلك يعد شخصًا مغتربا عن وسائل الإنتاج طالما أنه لا يستطيع الوصول إلى السعادة والقناعة في عمله، وهو بهذا يحقق معنى الاغتراب للإنسان على حد تعبيره.

ومنه تختلف ظاهرة الاغتراب من مفكر إلى آخر ومن اتجاه إلى آخر بحسب الجذر الذي تنتمي إليه الظروف أو الأحوال التي تؤدي إليه، فالاغتراب مثلا عند فيورباخ يرتبط بنوع من الوعي المشوه، وعند ماركس ينبع من واقع المجتمع الطبقي، ومنه نقدم تعريفا جامعًا لكل هذه الطروحات السابقة التي تغنت بها دراستنا المفاهيمية السابقة ونقول كتعقيب عليها بأن الاغتراب، "هو حالة من الانفصال تحدث بين الإنسان في الجانب الأول، وبين ذاته وأفعاله أو ما عداه من بشر أو أشياء أو مؤسسات، وهو حالة تكون مسبوقة بوحدة حقيقية أو مفترضة أو متخيلة، وتتم بطريقة واعية أو لا واعية، ويعقبها نتائج يمكن أن تكون إيجابية وفعالة فتسير اتجاه تحرير الإنسان وتطوير ذاته وملكاته، أو قد تكون سلبية ومعوقة فتؤدي إلى تدمير الذات الإنسانية"[23].

## 2- الاغتراب في الفكر العربي:

نوضح في الفكر العربي بعض آراء الباحثين العرب في مفهوم الاغتراب، ولا نريد بذلك أن نتبع موضوعات الاغتراب في الشعر العربي بل نرمي إلى تلمس مدى بلورة الاغتراب في آراء بعض القدماء والمحدثين خارج نطاق التعبير الشعري، وفي البداية نولي الأهمية لآراء القدماء بحكم الزمن، إذ حظي مفهوم الاغتراب لدى القدماء الذين مثلوا أهم آرائهم عنه من خلال معايشتهم لهذا الوضع أو من خلال رؤيتهم لمن تغربوا ممن حولهم، فأخرجوا وألفوا الكتب والرسائل، ولعل أهم من خصه بالدراسة والتنظير كل من **الجاحظ** (**776م- 868م**) في كتابه "**الحنين إلى الأوطان**" الذي ضم فيه آراء وأخبار وأشعار الشعراء عن الغربة وأبعادها النفسية وانعكاساتها على حياة العربي، وهو يقول في ذلك:" الغريب كالغرس الذي زال أرضهُ، وفقدَ شِربَه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابلٌ لا ينضُر"[24].

يقول: "الغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله كالثور النادّ عن وطنه الذي هو لكل رام قنيصة"[25]، ومضى على نفس المعنى يصف حال من تغرب عن وطنه وأهله وبيان الأثر النفسي الذي يترتب عن

الغربة من حزن وخيبة أمل، لما آل عليه حاله بسبب تغيرات الحياة التي حطمت أمله الوجداني والنفسي، مما جعل منه فريسة سهلة لكل ضانٍ به من سوء، وذلك بغض النظر عن المكانة التي يكون عليها المغترب في غربته فهو على حد سواء لنفس المآل.

**وأبو حيان التوحيدي** (**923م– 1023م**)في رسالته التي تضمنها كتابه "**الإشارات الإلهية**" الذي استمد آراءه من تجربته الحياتية أين أمضاها بائسًا فقيرًا، منبوذًا جاب البلدان وقصد الأمراء ولم يحظ بأمل يشفي بؤسه الذي لطالما رافقه في مسيرته الحياتية، ويقول مغردًا في إحدى رسائله عن ما قام به من دراسة حول الاغتراب في مؤلفه: "سألتني – رفق الله بك، وعطف على قلبك– أن أذكر لك الغريب ومحنه وأصف لك الغربة وعجائبها، وأمّر في أضعاف ذلك بأسرار لطيفة ومعان شريفة، إمّا معرضًا، وإما مُصرحًا، وإما مُبَعدًا...

يا هذا: هذا وصف غريب نأى عن وطن بني بالماء والطين، وبعد عن آلاف له عهدهم الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأس بين الغدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحذق المراض، ثم كان عاقبه ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، فأين أنت من غريب قد طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو في كن، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن، إن نطق نطق خربان منقطعًا، وإن سكت سكت حيران مرتدعا، وإن قرب قرب خاضعا، وإن بعد بعد خاشعا وإن ظهر ظهر ذليلا، وإن توارى توارى عليلا، وإن طلب طلب واليأس غالب عليه..."[26].

يظهر منذ بداية الرسالة بأنها عبارة عن إجابة لسائل عن حال الغريب والغربة، ووصف يراد به التجاوز، أي أنه يعكس حالا على مدى صعوبتها وسلبياتها، جراء الغربة وتموضع العذاب النفسي الذي لا يخف وطئه لا بقرب أنيس أو قريب، وقد استعظم التوحيدي الغربة لما لها من أثر يضمي عتبات النفس، وجعلها في مظهر المرء المتناهي عن الحياة ذو السلوك العاتب العاتم الملامح الغير مبالي لما حوله مما يقوده إلى تصرفات مخالفة لغيره، يسكت بها عثراته التي آلت به إلى حلبات الضياع بين مجموعة من المبتذلين المسيطرين الذين لا يرجون منه غير موته البطيء بين وطأتهم الظالمة.

وفي نهاية رسالته يقول: " يا هذا الغريب في الجملة من كله حُرقة، وبعضه فُرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغداؤه حَزَن، وعشاؤه شجن، وآراؤه فتن، ومفرقه مِحن، وسرُّه علن، وخوفه وطن...الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه، من وهب نفسه لله متعرضا لجدراه"[27].

نتج حديثه هذا عن اغترابه من خلال تجربته الحياتية –كما ذكرنا– فقد اغترب في وطنه ثم اغترب عنه، وانتهى به الأمر أيضًا إلى الاغتراب عن ذاته، ورأى بأن الاغتراب عن المجتمع هو أشد أنواع الاغتراب قسوة وألما، وهذا يدل على أنه قد عانى في حياته الكثير مما أدى به إلى هذه التغيرات في حياته ووصفها بهذا الطرح المتغير بين ضمنيات الوطن والمجتمع ليزج بحالته النفسية في مسرح كله تقلبات نفسية ووجدانية.

مما دفعه ذلك إلى الكتابة في مسألة الاغتراب كتصوير نقول عنه بالمرآة العاكسة لتغيرات حياته الأدبية والثقافية التي عان فيها من الاغتراب المكاني والنفسي والاجتماعي، الأمر الذي دفعه في النهاية إلى اعتزال الحياة وملذاتها، وكان منه كردة فعل على ما آل إليه حاله الاغترابي حرق كتبه ومؤلفاته حتى لا يقتني ممن هم بعده من ثرى علمه وثقافته لأنهم لم يولوه عناية واهتمام بحاله، ولقد عبر عن جزء من معاناته بقوله:" لما رأيت شبابي هرما بالفقر، وفقري غنى بالقناعة، وقناعتي عجزًا عن أهل التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه وموضعي منه، فرأيت طرفه عني نابيا، وعنانه عن رضاي منثنيا، وجانبه في موادي خشنا، وارتقائي في أسبابه نائبا، والشامت بي على الحدثان متماديا، طمعت في السكوت تجلدا، وانتحلت القناعة رياضة، وتألفت شارد حرصي متوقفا، وطويت منشور أملي متنزها، وجمعت شتيت رجائي سالبا، وأعت الصبر مستمرا، ولبست العفاف محمودا..."[28].

ومما دفعه إلى مثل هذا الرد هو أنه أينما ولى وجهه لم يلقى إلا الصدّ والغير مبالاة، لم يجد غير وجوه تحمل في سيماتها الحقد والبغض والأنانية، ولا تخرج من أفواهها غير نفحات ممتزجة بالفساد إذا أعطوا منوا وإذا أخذوا نهبوا.

وفي العصر الحديث نذكر على سبيل المثال بعض المحدثين الذين كتبوا وسطروا آرائهم الاغترابية في أبحاثهم وأولو أهمية لهذا الموضوع (**الاغتراب**)، مما جعل مفهومه يتعدد نتيجة للتضخم المعرفي الهائل في العصر الحديث، وفيما يلي بعض الآراء لبعض المفكرين للمفهوم الاغترابي.

تشير الدكتورة **أحلام الزعيم** بأن "الاغتراب في أبسط معانيه هو تصدع الذات ذات الفرد، وانشقاقها نتيجة عدم تواؤمها مع المجتمع والعالم المحيط بها"[29]، فكنتيجة لعدم تواؤم ذات الفرد مع كينونتها ومع المجتمع الذي يحيط بها، تصبوا بذلك إلى نوعين من الاغتراب اغتراب عن الذات واغتراب عن المجتمع، أما **علي وطفة** فيقول في هذا المقام: "مفهوم الاغتراب يشير إلى النمو المشوه للشخصية الإنسانية، حيث تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة، وهو الحالة التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه، فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي لنوع من التشويه والاغتصاب، تحدث عملية اغتراب وتشويه"[30].

فالإنسان بطبيعة الحال لا يولد مغتربا ولا تنشأ معه مظاهر الغربة بل هو يكتسبها من خلال ما يمر به في مسيرته الحياتية، وبالخصوص تلك الحالات التي تغير من حياته العاطفية مجرى بكامله فتبدأ ترسم في شخصه ملامح الوحدة والألم، وكنتيجة لتراكمات تلك الأزمات على شخصه تكون البداية الأولى لاغترابه وتوثيق هذه الزيجة في حياته المليئة بالأمل وتحويلها إلى صورة خالية من كل معاني الحياة، وهكذا تكون البدايات الأولى للاغتراب.

إذن فمصطلح الاغتراب لا يكون عن الذات وعن المجتمع بل هو يضم كل جوانب حياة الفرد، ويشمل كل ما يحيط به، فهو انحلال الرابطة بين الفرد والمجتمع، وهو شعور بالتبعية أو لا انتماء إلى محيط ما، فيصبح المرء مستلبًا لحرياته الشخصية، وهذا ما يولد لديه شعورا داخليا بفقدان الوعي والإحباط والتشاؤم والانفصال عن من هم حوله ممن يعيشون حوله، مما يجعله مغتربا منفصلا عن ذاته وعن الآخرين.

**2- تجليات الاغتراب في شعر البارودي:**

تجربة الشعر لدى محمود سامي البارودي هي تجربة لها صداها الكبير لدى الشعرية العربية ككل، فقد تناول خلالها في ديوانه الشعري شتّى الأغراض الشعرية التي تبرهن على حذاقته في نظم الشعر، بين تمثيل لمحنة الذات (**أنا الذات**) وأنا الآخر، فيجمع في هذا الديوان بين الفخر، والحماسة والهجاء والمدح والغزل والحكمة، وكأنه يُحْكِمُ أركان دولته الشعرية بواسطة مزيج من الأغراض الشعرية، وما زاد شعره مكانة واختلافاً بين نظراءه من الشعراء هو شعره الاغترابي وأقواله الخطابية المفعمة بكل معاني الألم والعاطفة الجياشة، التي كانت خير متحدث عن تصوراته الشعرية، حيث إن كل قصيدة منه كانت تجسد الحالة النفسية لهذا الشاعر الذي أحيا بها الشعر من مرقده بتصوراته الجديدة وإضافاته لأغراض جديدة في الشعرية العربية، وها هو يصور لنا أباييته الشعرية التي ترسم للمتلقي لوحة شعرية اغترابية غاية في الإبداع والجمالية، لوصف ذاته الإبداعية ومحنتها من خلال مجموعة الأغراض التي حملتها أباييته، ومن هذه الأغراض التي وصفت معاناته الطويلة طوال فترة نفية نذكر:

1- **الفخر والحماسة:** البارودي رغم بعده عن وطنه وعن ميادين الحرب والقتال آنذاك إلا أنه لم يرضخ لنوائب الدهر بل هو باقٍ على العهد، يستذكر في ذاته من حين إلى آخر تلك الأيام والأماكن التي شهدت مجده وبطولاته من كل ربوع وطنه، يقول:

ولَسْتُ مِمَنْ إِنْ دَجَا حَادِثٌ ... أَلْقَى زِمَامَ الأَمْـرِ أَوْ فَوضَـا

لَكِنَّنِي أَلْقَـى الرَّدَى حَاسِـرًا ... وأَصْدَعُ الخَصْمَ إِذَا عَرَّضَا

أَسْتَحقِبُ الشَّهْدَ لِمَـنْ وَدَّنِي ... وأَنْفُـثُ السُّـمَّ لِمَنْ أَبْغَضَـا

جَرَدْتُ نفْسِي لِطُلَابِ العُـلَا ... والسَّيفُ لَا يُرْهِبُ أَوْ يُنْتَضَى[31]

تتوضح أنا الذات الشعرية في قوله هذا وتهيمن على المعنى العام للقصيدة من أولها إلى آخرها، ويمثل بؤرتها التي يريد الشاعر بها وصف حاله وذلك بتكرارات دال الأنا في صدر البيت وعجزه، ومثلت بذلك مناط الدلالة، ومدار حركتها وفاعليتها محاولًا الخروج من أسر الذات الموجوعة، وعن ذاته التي تلطخت بدماء الدهر المرير وأبعدته عن ربوع وطنه وعن تلك الأماكن التي احتوته واحتوت هدفه في الحياة.

2- **محنة الذات في الحنين إلى الأهل والأصدقاء:** تبرز ذات الشاعر بصورة واضحة في المواقف التي تجعل منها منسية ضائعة لكثرة شوائب الحياة، فتحن بها العاطفة إلى تلك الأماكن والذكريات التي كانت بها في

أوج سعادتها مع الأهل والأصدقاء، فتدمي ذات الشاعر بذلك شوقًا إلى من شاركتها تلك الأفراح، فتقول قريحته عن الحنين وما إلى ذلك من وصف لحالة الذات المتألمة، يقول من مطلع قصيدتة وهو في سجن سرنديب:

شَفَنِي وَجْدِي وَأَبْلَانِي السَّهَرُ          وتَغَشَّتْنِي سمـــاديرُ الكَـــدَرْ
فسَوادُ اللّيلِ ما إنْ ينقَضِي          وبيَاضُ الصُّبحِ مَا إنْ يُنتظَرْ[32]

تكشف القراءة المتأملة والواعية لهذه الأبيات إلى تحرك دلالتها إلى النظرة التصورية للغة الشعرية عند البارودي في رؤية العناصر التقليدية وعناصر التجديد، وإجتراح لغة جديدة قوامها علاقات لغوية ذات سياقات جديدة لم يحذ في بنائها أحد من قبل، وتوظيفها فيما يخدم تجربته الشعرية الخاصة والسوءات التي حلت عليها من جراء نفيه، وما يؤكد ذاته المتألمة في هذه الأبابيت الصيغ مثل: (**شفني وجدي**)، (**سمادير الكدر**)،

ويقول بعد وصوله إلى جزيرة سرنديب وذلك بعد ظهور ابنته الوسطى (سميرة) في المنام فمضى يصف حنينه لها في أبابيته التالية:

تَأَوَّبَ طَيْـفُ مِنْ (سميرة) زَائـرٌ          ومَـا الطَّيفُ إلَّا مَا تُرِيهِ الخَواطِرُ
طَوَى سُدْفَةَ الظَّلْماءِ واللَّيْلُ ضاربٌ          بِأوراقِـهِ والنَّـجْمُ بـالأُفْـقِ حـائِـرُ
فَيا لَـكَ مِـنْ طَيْـفٍ أَلَمَّ وَدُونـهُ          مُحِيطٌ مِنَ البَحْرِ الجَنُوبِيِّ زَاخرُ
تَخَطَى إليَّ الأرضَ وجْدًا ومَا لـهُ          سِوَى نَزَواتِ الشَّوقِ حَادٍ وَزَاجِـرُ
أَلَـمَّ ولَـمْ يَلْبَـثْ وسَـارَ وَلِيْتَـــهُ          أَقَامَ ولَوْ طـالتْ عَليَّ الـدَّياجِـــرُ
تحملُ أهوالَ الظّلام مُخـاطِرًا          وعَهْدِي بِمَنْ جَادتْ بِهِ لا تُخَاطِرُ[33]

وفي هذا المحور يتبدى أنا الآخر (**سميرة**) صاحب الحضور والفاعلية، ومن قراءتنا الفاحصة للبيت الأول الذي استهل به ملفوظة المحكي يتضح لنا أن البارودي يستحدث معاناته الذاتية جراء نفيه إلى جزيرة سرنديب بعدما رأى طيف ابنته (**سميرة**)، فصور ذلك من خلال توظيف مجموعة من الألفاظ (**تأوب، طيف، الخواطر، طوى، الظلماء، ألم**...)، التي عبرت عن ذاته الحزينة وتواشجها مع الآخر لتحقيق علاقة التأثير والتأثر لتحقيق فاعلية النص، وللتأثير في نفسية المتلقي لخطابه الشعري استعان بكم من الصور البيانية التي أضافت على شعره ميزة تزيينية مثل : (**الطيف**) الذي شبهه بالإنسان، و(**الليل ضارب بأوراقه**) كناية عن الظلمة التي ألمت به، و(**النجم بالأفق حائر**) كناية عن شدة الظلام، وذلك كله يهدف إلى ترسيخ المعنى الفني العاطفي الذاتي في ذهن المتلقي للخطاب الشعري.

وفي موضع آخر في الرثاء الذي توفر في ديوانه على شاكلة إحدى عشرة قصيدة رثائية رثى بها زوجته ووالده وأبناءه وأصدقائه، ومما ضاعف من حزنه وألمه الذاتي أن معظم الذين رثاهم كانوا قد قضوا مصيرهم وهو في فترة

نفيه في سرنديب، ومن مراثيه التي أفعمت بكل معاني الأسى مرثاه في زوجته التي ظل يشتاق إليها في غربته، يقول:

أيَـدَ المنُـونِ قَـدَحْـتِ أيَّ زنَـادِ وأطَـرْتِ أيَّـةَ شُـعْـلَةٍ بـفـؤادِي

أوهنتِ عَزْمِي وَهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ وحَطَمْتِ عُودِي وَهْوَ رُمْحُ طِرادِ

لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطْبٌ ألَمَّ بِساحتِي فَأنَاخَ أَمْ سَهْمٌ أصابَ سَوادِي[34]

يبدو أن تعزية الذات لأناها ظهر من خلال استحضار الشاعر لحاله بعد فقدان زوجته، فشكل لنا مكبوتاته الداخلية التي تنأى عن الرضوخ والاستسلام لتراكمات الأحزان عليه، فمثل ذاته الشعورية بطبيعة الجندي التي تأبى وتنكر ما أصابه في زوجته، فوظف بذلك مختلف الألفاظ التي تدل على الحرب وأجواء المعركة للتأكيد على صموده في وجه مصابه الكبير مثل لفظة (**الزناد، الفيلق، الرمح، السهم**)، فجسدت هذه الأبيات الثلاثة بذلك شعور البارودي بفداحة المصيبة التي نزلت به فيخاطب الموت الذي اقترب منه ومن داره فأصاب زوجته وهو في بلاد الغربة، فأشعل النار في قلبه حزنًا مما أضعف صبره على غربته وجعله منهور القوى ضد أعدائه، مستخدمًا في بداية استهلاله الأسلوب الندائي (**أيد المنون**)، لنداء القريب كناية عن قرب الموت منه، وفي البيت الثاني تغنى عن ما أصابه من ضعف بغرض الإخبار عن ما جال على خاطره من كبت آهات الألم، وفي البيت الثالث ذهب مصادقًا على ما ألم به مستخدمًا ملفوظ (**هل**) لغرض الاستفهام، وهكذا كانت جل أبياته في هذه القصيدة المرثية لزوجته تتغنى بين الأسلوب الإخباري والإنشائي تحمل بين أبابيتها غرض النداء تمثيلًا عما أصابه من محنة في ذاته الشاعرة.

3- **محنة الذات في الحنين إلى الوطن**: الوطن هو الستار الذي يحتمي تحت ظلاله الفرد هو الملاذ الآمن والبيت الدافئ، والبارودي بسبب ما آلت إليه وطنه (مصر) من استعمار حرم من ذلك الحق، فما كان منه إلا أن يحرر من حنينه إليها أقوالًا وأبابيت شعرية لعظمة مصابه وهو بسرنديب، وأول ما يصادفنا من تجليات المباني الصياغية لمحنة الذات في البعد عن الوطن في أقوال البارودي الشعرية هو قصيدته التي وسمها بعنوان (سرنديب) والتي جسد فيها ذاته التي تنكر لها الزمن وخانها وتركها وحيدة لا أحباب ولا أصدقاء ولا أهل ولا وطن، فكانت القصيدة بذلك هي وصف لمعاناته الذاتية:

كَفَى بِمُقَامِي في"سَرَنْدِيبَ" غُرْبَةً نَزَعْـتُ بِهَـا عَـنِّي ثِيَـابَ الْعَلَائـِـقِ

وَمَنْ رَامَ نَيْلَ الْعِزِّ فَلْيَصْطَبِرْ عَلَى لِقَاءِ الْمَنَايَـا وَاقْتِحـَامِ الْمَضَـايــِقِ

فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ رَنَّقْنَ مَشْرَبِــــي وَثَلَّمْنَ حَدِّي بِالْخُطُوبِ الطَّـوَارِقِ

فَمَا غَيَّرَتْنِي مِحْنَةٌ عَنْ خَلِيقَتِــي وَلَا حَوَّلَتْنِي خُـدْعَةٌ عَنْ طَـرَائِـقِـي

وَلَكِنَّنِي بَـاقٍ عَلَى مَا يَسُـرُّنِــــي وَيُغْضِبُ أَعْـدَائِي وَيُرْضِي أَصَادِقِي

فَحَسْرَةُ بُعْدِي عَنْ حَبِيبٍ مُصَادِقٍ كَفَرْحَةِ بُعْدِي عَـنْ عَـــدُوٍّ مُـمَـاذِقِ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَنْهَضْ لِمَا فِيهِ مَجْدُهُ قَضَى وَهْوَ كَلٌّ فِي خُدُورِ الْعَوَائـقِ؟
وَأَيُّ حَيَـــاةٍ لِامْــرِئٍ إِنْ تَنَـكَّــرَتْ لَهُ الْحَالُ لَمْ يَعْقِدْ سُيُورَ الْمَنَاطِقِ؟[35]

يتضح لنا من خلال هذه الأبيات حضور ذات الشاعر في جسدها، فكان استهلاله تمهيدًا لها بلفظة (**كفى**) التي تدل على الرفض والنداء، وعبرت عن مدى سخطه على حالته المزرية وعن ذاته التي تغير عليها الزمن بعد بعده عن أهله وأحبابه في دياره، ويصف الشاعر لنا بذلك في ملفوظه هذا من خلال مجموعة من العلاقات البنائية السياقية (التقابل للألفاظ والطباق والتكرار، والصور) معاناته التي آل إليها بعد نفيه، فكانت ذاته المتكلمة قد أظهرت أناها لتعلن للآخر (**الغربة**) رفضها الشديد له، وهذا الحوار لم يصدر من الذات إلا لينادي الغريب لتحريره، فمضى يواسي ويستوصي نفسه خيرا ويحثها على الصبر على الحياة التي قست مع الأيام عليه وعكرت صفو حياته، وعمد في تبيان حالته الشعورية إلى اختيار مفردات دلالية دون غيرها لتتناسب مع ما يصفه لنا من محنته الذاتية، من ذكر الألفاظ التي تدل على الغربة والحنين والمعاناة مثل(**غربة، فليصطبر، المضايق، محنة ، خدعة، العوائق**).

وأيا كان الأمر فقد عكست الدلائل التعبيرية الحضور الفاعل للذات وأول ما يطالعنا منها ظاهرة الترادف (**المضايق، محنة**) التي بينت حالة الشاعر من ضيق، و التقابل مثل: (**فحسرة بعدي عن حبيب مصادق**...**كفرحة بعدي عن عدو مماذق**) الذي تظهر لنا أن الشاعر في حالة تخبط بين ما يعانيه من حزن وتوجع مما يحدث له، وكذلك الطباق مثل: (**أعدائي، أصادقي**)، والصور على سبيل المثال( **نَزَعْتَ بِهَا عَنِي ثِيَابَ العَلَائِقِ**)، (**فَإِنْ تَكُنْ الأَيَامُ رَنَقْنَ مَشْرَبِي**)، (**ثَلَّمْنَ حَدِّي**) ،(**أَنِّي دُرَّةٌ**)، (**كُل فِي خُدُورِ العَوَائِقِ**)، إذ أن هذه الدلائل التعبيرية والأنواع التركيبية عبرت عن مدى سوء ذات الشاعر فكان يرفع مستوى نغماتها الصوتية تارة ويجعلها خفيفة حينا آخر، وذلك تبعا لنفسه الشعري وعاطفته التي كانت تهيج أحيانا وتهدأ حينًا آخر، وقد ساعدت هذه التركيبات بدورها في إنتاج بنية إيقاعية للقصيدة وعكست الجانب النفسي والانفعالي للشاعر، وكان لها الدور الأكبر في توفيقه في هذا الطرح لأبياته التي عبرت عن انفعالاته الداخلية الاغترابية.

وبناءً عليه فإن قوله هذا هو لوحة شعرية عبرت للذات بحق، وهذا ما أفصحت عنه مدلولات الأفعال والكلمات والصور التي جسدها الشاعر من خلال ملفوظه المحكي هذا الذي ينتمي للذات.

ويواصل خط التناغم والانسجام سيره من خلال تموضع ذات الشاعر في قول مماثل في الحنين إلى الوطن، في آخر أيام نفيه بعدما واكبته الشيخوخة وتوهن جسمه من جراء الدهر، فخارت قواه ووهنت مما زاد معاناته الذاتية وحنينه وشعوره بالوحدة وهو بعيد عن وطنه مصر الذي ترعرع فيه ونشأ بين أحيائها:

لَبَيْكَ يَا دَاعِيَ الأَشْوَاقِ مِنْ دَاعِـي أَسْمَعْتَ قَلْبِي وإِنْ أَحْطَأْتَ أَسْمَاعِي

يَا حَبَّذَا جُرْعَةٌ مِنْ ماءِ مَخْنِيَةٍ وَضَجْعَةٌ فَوقَ بَرْدِ الرَّمْلِ بالقَاعِ
وَنَسْمَةٌ كَشَمِيمِ الخُلْدِ قَدْ حَمَلَتْ رَيَّا الأَزَهِيرِ مِنْ مِيثٍ وَأَجْرَاعِ[36]

تدل هذه الدفقة الشعرية عن إحساس الذات الشديد بالفقد، فلا زالت هذه الأخيرة (**مصر**) تستعر في دواخله آلام وآلام ولا يزال ينزف من طعنات الخناجر المغروس في خاصرة الوطن رغم البعد والغربة، فيتمنى لو جرعة تشفيه مما هو فيه من علة الغربة بعيدًا عن جنة الخلد، فيبتدئ أبياته بمفردات (**لبيك ياداعي الأشواق**) دلاله على مدى حنينه وشوقه لها وتصرخ ذاته بالنداء عن جرعة منها تسقي مرارة ذاته الغريبة وتعيدها إلى معاهد شبابها وزهرها، فهي كانت الجنة والملعب والأنس الود الذي لا ينساه مهما حرمت عليه وبعدت عنه:

ذَاكَ مَرْعَى أُنسِي ومَلْعَبُ لَهْوِي وجَنَى صَبْوَتِي وَمَغْنَى صِحَابِي
لَسْتُ أَنْسَاهُ ما حَيِيتُ وحاشَا أَنْ تَرانِي لِعَهْدِهِ غَيْرَ صَابِي
ليسَ يَرْعَى حَقَّ الودادِ ولا يَذْ كُرُ عهْدًا إلَّا كَرِيمُ النِّصَابِ
فَلَئِنْ زَالَ فاشْتِيَاقِي إِلَيْهِ مِثْلَ قَوْلِي باقٍ عَلَى الأَحقَابِ[37]

يبرز هذا القول ذات الشاعر من خلال الألفاظ الدلالية والتركيبات التي وظفها والتي تدل من بدايتها إلى نهايتها على حجم الحنين والفقد الذي أصابه، مثل لفظة (**ذاك مرعى أنسي**) (**أن تراني**) فلا ترتاح دواخله لحاله بعيدًا عن وطنه، ولا يؤنسه أمر إلا الرجوع إليها، فهو لن يتنكر لأرضه التي حضنته منذ بزوغ حياته، وبذاته حملت هذه الأبيات حنين الذات الشاعرة إلى ماضيها وأيامها بين تلك الأراضي الطاهرة.

4- **محنة الذات في الحنين إلى المحبوب**: الحنين إلى المحبوبة هو من بين الأحاسيس الطبيعية التي تنتاب الإنسان أثناء بعده عن من أسكنهم ربوع قلبه، وبذلك لا بد من الحين إلى الآخر أن يستذكر الشاعر محبوبه ولاسيما إذا تغرب عن الأمكنة التي كانت تجمعه به، ويحدثنا بذلك محمود سامي البارودي عن أعمق مشاعره وهو بسرنديب يشكو داء الحب والفراق ويتشوق إلى وطنه وأهله:

هَلْ مِنْ طبيبٍ لدَاءِ الحُبِّ أو راقِي؟ يشْفِي عليلًا أَخَا حُزْنٍ
قَدْ كَانَ أَبْقَى الهَوَى مِنْ مُهْجَتِي رَمَقًا حَتَّى جَرَى البَين فاستولى عَلى الباقِي
حُزنٌ بَرانِي وأَشْواقٌ رَعَتْ كَبِدِي يَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ حُزْنٍ وَأَشْوَاقِ
أُكَلِّفُ النَفْسَ صَبْرًا وَهِيَ جَازِعَةٌ والصَّبْرُ فِي الحُبِّ أَعْيَا كُلَّ مُشْتَاقِ[38]

الملاحظ في هذه الدفقة الشعرية أن أنا الآخر (**المحبوب**) هو محور القول ومدار الدلالة، فهو الحاضر والمهيمن على كامل الجسد، في حين توارت أنا ذات الشاعر بصورة باهتة وراء ظلال المحبوب، وأول ما يصادفنا من تجليات المباني الصياغية الكاشفة عن محنة الذات في هذا المقطع الشعري الأساليب الإنشائية المتمثلة في

أسلوب الاستفهام في الشعر العربي التي حاول من خلالها الشاعر أن يتجاوز الحقيقة الواقعية ليفيد بها (**التمني البعيد**) الذي يبحث فيه عن طبيب أو راقٍ لداء الحب، وقد استحضر الشاعر لفظة (**الداء**) في هذا المطلع للقصيدة للدلالة على علة النفس أو الجسد، ولفظة (**الطبيب**) يستذكر به المهارة في الأداء في لحظة من لحظات الخوف من المرض أو الموت، وأيضًا مختلف الألفاظ التي وظفها من بداية أبياته إلى نهايتها مثل ( **حزن، أشواق، أعيا...**).

ويقول في أبيات أخرى يصف حالة التيه التي أصابته من جراء بعد الحبيبة وحنينه إليها وهو بسرنديب بعيدًا عن دياره التي جمعت بينه وبينها وحرمته من رأيتها مرة أخرى والتغني بمفاتنها:

فَيَا قَلْبُ مَا أَشْجَى إِذَا الدَّارُ بَاعَدَتْ ! وَيَا دَمْعُ مَا أَجْرَى وَيَا بَيْنُ مَا

وَيَا صَاحِبِي المَذْخُورُ للسِّرِّ ! إِنَّنِي ضَلَلْتُ فَهَلْ مِنْ وَثْبَةٍ تُكْسِبُ الحَمْدَا؟

حَلَفْتُ بِمَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ نِقَابُهَا وَيَا لَكَ حَلْفًا ! مَا أَرَقَّ وَمَا

وَكَيْفَ يُفِيقُ القَلْبُ مِنْ سُورَةِ الهَوَى وقَدْ مَدَّهُ سِحْرُ العُيُونِ بِمَا

يبدو أن هاته اللوحة الذاتية تنزف بالكثير من مشاعر الحب والحنين، فالشاعر من أول وهلة في صدر بيته الشعري رضخ لشخص المحبوب وسلم له حاله وعواطفه، فتمثلت ذاته المولعة بالحب شاردة الذهن، وما يؤكد ذلك هو أبياته التي عبر عنها بأسلوب التعجب الذي زاد من تبيان ذاته التائهة في حب الحبيبة ومحاسنها، فلا القلب هدأ ولا الروح استراحت من كدر الحب ومقالبه التي اعترت ذات الشاعر وجعلته أسيرًا له ضالًا يستنجد الخلاص من هذا التيه والضياع، مستحضرا للدلالة على ذلك كل من لفظة (**ضللت، وكيف يفيق**).

وإضافة على هذه الأغراض الاغترابية التي عبرت عن تيه ذات الشاعر وعلاقتها بالآخر من جوانب عدة، حفل ديوان البارودي بغرض جديد لم يكن في قائمة الأغراض الحداثية للشعرية العربية وهو الغرض السياسي، إذ شكل البارودي "ظاهرة تكاد تكون فريدة في الشعر العربي، ذلك أنه كان يمتلك مشروعًا سياسيًا طموحًا دفع الكثير من أجل تحقيقه وإنجازه، ومما يميز هذا المشروع، أنه لم يكن شخصيًا بقدر ما كان وطنيًا قوميًا يستهدف إقامة نظام عادل يضمن الكرامة والمساواة لأبناء الوطن جميعًا، وأكثر من ذلك فقد ذكر البارودي غير مرة أنه يسعى لإقامة نظام ديمقراطي جمهوري يعتمد الشورى أساسًا للحكم بعيدًا عن سلطة الفرد وتسلطه، وهذا توجه جديد غير مسبوق ولا متوقع وبخاصة في تلك المرحلة التي عاشها البارودي وتلك التي سبقته"[40].

فهو رغم تمسكه بالتراث واعتباره المنطلق الرئيسي في شعره، إلا أن هذا الأمر لم يمنعه من التطرق لهموم وطنه، من خلال الحس الوطني الذي امتاز به، فأنشد في حب الوطن والأمة بين فيها واقعه بأسلوبه الخاص والأحداث التي عايشها في وطنه، يقول في إحدى مقولاته الشعرية وهو بسرنديب:

أَسَلَّةُ سَيفٍ أَمْ عَقِيقَةُ بَارِقِ أَضَاءَتْ لَنَا وَهنًا سَمَاوَةَ بارِقِ

لَوَى الرَّكبُ أعناقًا إليهَا خَواضِعًا بزَفْرَةِ مَحْـزُونٍ ونَظْـرَةِ وَامـقِ
وفِي حَرَكَاتِ البـــرْقِ للشَّـوقِ آيــةٌ تَدُلُّ علَى مَا جَنَّهُ كُلُّ عاشـقِ[41]

تحدثت قريحة الشاعر عن السيف والركب بصيغة الماضي وكأنه يرجع ألفاظه في حاضره إلى ما مضى، ليصوره من جديد في قالب مغاير عن التعبيرات الماضية، باعتبار الزمن الشعري القديم هو النموذج الذي اقتدى به، فجال خاطره بما يتناسب مع غرضه الشعري الفني فوظف ما يثري أبياته من ألفاظ قديمة مثل: (**السيف**، **عقيقة**، **بارق**، **الركب**...)، معبرًا بذلك عن معنى جوهري وهو الغربة، وبالذات غربة المكان من خلال نفيه لسرنديب.

كانت أبابيته هذه تسعى إلى هدف واحد عنون بالوطنية وذلك لما ظهر فيها من توظيف ذاته المغتربة عن الوطن وبأسلوب يترقرق من صلب بنيته الشعرية المعهودة، ولا بد أن ذلك يرجع إلى حس الوطنية الذي هيج خاطره بأسمى العبارات والألفاظ التي ارتسمت في جل أقاويله الشعرية بعد نفيه إلى سرنديب بعدما تحدث عن الوضع السياسي والصراع الذي تجسد فيها مما آل بها إلى طلب الحرية.

نلحظ من ذلك أن الشاعر يخاطب نفسه في مواقف مختلة وذلك ما يعرف بلأنا أي الذات ولم يتجاوز محاوراته الشعرية الآخرين في الكثير من أقواله، وأكثر ما قاله في مثل هذا الغرض إضافة على ما سبق ذكره قوله:

وَنَزَعْتُ عَنْ نَزَقِ الشَبِيبَةِ والصِّبَا بَعْدَ المِشِيبِ وللشَّبَابِ نِزَاقُ
لَا الدَّارُ دَارٌ بَعْدَ مَا رَحَلَ الصِّبَـــا عَنِّي وَلَا تِـلْكَ الرِّفَـاقُ رِفَـاقُ[42]

كما نجد نوعًا مختلفًا من الذات وهو (**أنا**) المتكثرة التي تشمل كل فئات المجتمع، حيث تكلم الشاعر عن الحنين والشكوى والدهر والشعر السياسي وكل الأغراض التي كانت لها علاقة بأحوال المجتمع ومعاناته، وتبقى ذات الشاعر المتكثرة دائمًا مرتبطة بالوطن لأنه أولًا وأخيرًا يبقى الوطن هو هاجس الشاعر الذي يجسد به ردة فعله حيال مستجداته التي تطرأ عليه، وبذلك تكون أنا الشاعر هي مرآة وطنه[43].

**– النتائج:**

وتأسيسًا على ما سبق كان هذا هو نهج البارودي في جل قصائده الاغترابية باستخدام فنه وأسلوبه بعيدًا في الكثير من الأحيان عن التقليد والإتباع، مثل الغرض السياسي الذي حول فيه الشعر من نطاق الذات (أنا الذات) إلى نطاق الجماعة (أنا الآخر).

– تبنى البارودي مهمة إحياء التراث الشعري القديم، مما جعله ينأى عن النماذج الشعرية السائدة، أو نقل الثقافة السائدة التي كانت أسيرة للصنعة والتقليد اللذين يخلوان من كل أنواع المعاناة الحقيقة لقضايا الناس والعصر، وارتقى بالشعر إلى نهره العذب الكبير.

– عبر البارودي عن محنته الذاتية في الكثير من أبياته في الشعرية العربية بصيغة (الأنا) وفي أحايين أخرى استحوذت صيغة (أنا الآخر) على أقواله وهذا ما يدل على حذاقة الشاعر في نظم الشعر، وذلك يبرز من خلال تنوع أغراضه التي امتزجت بين الفخر والحماسة والحنين إلى الوطن.

– أحالت معظم النصوص الشعرية الاغترابية لدى البارودي على واقع متخام لتجارب متباينة عاطفية ووطنية وسياسية رسمت منحًا شعريًا في استراتيجية الخطاب الشعري الاغترابي لديه، وزيادة ثرية للشعرية العربية، وقد برز ذلك في عفوية اللغة وبساطة التنظير لها، وما أضفى عليها قالب الجمالية هو صدورها من انفعالات ذاتية.

**الهوامش:**

[1] – ينظر: حسن حماد، الاغتراب الوجودي، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، ط1، 2008م، ص12.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، مصر مج11، دط، دت، مادة(غرب)، ص23.

[3] – أحمد بن محمد بن علي الفيّومي المقرّي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، مصر، مج1، 2008م، ص276.

[4] – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت، لبنان، مج1، دط، 1986م، ص197.

[5] – Schacht(R) : Alienation ,George Allen / Unwin LTd. London , 1972 , P65 .

[6] – ينظر: حسن حماد ،الاغتراب الوجودي، هلا للنشر والتوزيع، جامعة الزقازيق، مصر، ط1، 2008م، ص14.

[7] – ينظر: المرجع نفسه، ص15،14.

[8] – ريتشارد شاخت، الاغتراب، تر: كامل يوسف حسين، دار شرقيات، القاهرة، مصر، ط1، 1980م، ص19.

[9] – ديا كريشتا، الاغتراب وموقف الإنسان من العالم، تر: يحيى هويدي، القاهرة، مصر، ط1، 1986م، ص164.

[10] – إسراء حامد علي الجبوري، سمات الاغتراب في فن ما بعد الحداثة، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد 22، العدد 2014/5م، ص153.

[11] – انتصار خليل حسن، هجران عبد الإله، الاغتراب عند الفارابي، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد (18)، العدد (5)، تموز 2011م، ص156.

[12] – عادل الألوسي، (الاغتراب والعبقرية)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2003م، ص12.

[13] – إسراء حامد علي الجبوري، سمات الاغتراب في فن ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص154.

[14] – جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، تر: دوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ص41.

[15] – بنعلي قريش، الاغتراب في الشعر العربي الحديث (1920-1945)،رسالة دكتوراه، جامعة بلعباس،الجزائر،2007/2006م، ص17.

[16] – ينظر: محمود رجب، الاغتراب (سيرة مصطلح)، درا المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط4، 1993م، ص65.

[17] – حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية (متاهات الإنسان بين الحلم والواقع)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص37.

[18] – المرجع نفسه، ص38.

[19] – Ludwing Feuerbach:The Essence of Christianity,Thrans by George Eliot Harper Torchbooks, New York,1957,p14.

[20] – Marx (k: Economic and Philosophic Manuscripts of 1844 Trans by M.Milligan, Foreign Language. Publishing House, Moscow 1956,p69.

[21] – Ibid: p70.

[22] –Ibid: p72-73

[23] – حسن حماد ،الاغتراب الوجودي ، مرجع سابق، ص51.

[24] – الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1982م، ص10.

[25] – المصدر نفسه، ص08.

[26] – أبي حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تح: عبد الرحمان بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، مصر، ط1، 1950م، ص78 ،79.

[27] – المصدر نفسه، ص83.

[28] –. ياقوت الحمدي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغريب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ص1939.

[29] – أحلام الزعيم، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص67.

[30] – علي وطفة، المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج 27، ع2، 1998م، ص247.

[31] – محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، تحقيق: علي الجارم، محمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، ط(1–4)، 1998م، ص302.

[32]– المصدر نفسه، ص252.

[33] – الديوان، ص236.

[34] – الديوان، ص153.

[35] – الديوان، ص386.

[36] – الديوان، ص339.

[37] – الديوان، ص67.

[38] – الديوان، ص370.

[39] – الديوان، ص173.

[40] – علي عبد الحميد مراشدة، في الشعر الحديث (محمود سامي البارودي)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ردمك، ط1، 2009م، ص153

[41] – الديوان ، ص385.

[42] – الديوان، ص358.

[43] – ينظر: مجيد صادقي مزيدي، شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي،مجلة الجمعية العلمية ا إيرانية للغة العربية وآدابها، العدد 21، 2011م،ص35.